معوقات الاقتصاد المغربي في العصر الوطاسي–السعدي
من خلال كتب الرحلات والجغرافيا
(أنموذج كتاب "وصف إفريقيا" للحسن الوزّان)

د. محمد استيتو
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
وجدة – المغرب

تعتبر بعض أنواع الرحلات والجغرافيا ذات فائدة كبيرة للغاية لدراسة جوانب من التاريخ الاقتصادي كما هو الحال بالنسبة لكتاب "وصف إفريقيا"[**] للحسن الوزّان، الذي يقدم معلومات مفيدة جدا عن أحوال الاقتصاد المغربي في الفترة الوطاسية–السعدية، وسنحاول أن نتوقف هنا، بصفة خاصة، عند مجموعة من معوقات تلك الأحوال الاقتصادية كما رصدها مؤلف هذا الكتاب. لكن وقبل ذلك يجدر بنا أن نجيب على السؤال التالي: هل يمكن الاطمئنان لمعلومات الوزّان؟ أو بالأحرى هل

[**] نعتمد الترجمة العربية التي قام بها الأستاذان محمد حجي ومحمد الأخضر، ط. 1، جزآن، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1980 و1982. وعن ترجمة الوزان ومصادر ومراجع تلك الترجمة يرجع لمقدمة المترجمين، (1: 3-21). وقد وضع الوزّان كتابه هذا في إيطاليا اعتمادا على الذاكرة وليس على مصادر تاريخية أو جغرافية تحت اليد، حتى إنه اعتذر عما يمكن أن يقع فيه من أخطاء، نظرا لأنه – كما قال – لم ير منذ عشر سنوات ولم يمس أي كتاب في التاريخ الإسلامي. (م. ن.، 1: 31). ونشير إلى أن الوزّان انتهى من ترجمته إلى الإيطالية بروما عام 933 هـ/1526م. وقد بلغ عدد الرحلات، التي تشكل فقط مادة هذا الوصف، والتي فصّل الوزان القول فيها تسع رحلات، منها ثلاث خارج المغرب. وقد تمت هذه الرحلات بين عامي 941 هـ/1508م و926 هـ/1520م.

للـوزّان خبرة أو دراية بشؤون المعاملات وبالاقتصاد تجعلنا نستند إليه ونطمئن لآرائه ولملاحظاته؟

الوزّان وخبرته بشؤون الاقتصاد من خلال وصفه

تشـكل معظـم مادّة كتاب "وصف إفريقيا" مشاهدات وخبرات شخصية لـلمؤلّف وشبه مذكرات لرحلات عديدة، قام بها داخل المغرب وخارجه في مراحل مختلفة من حياته، إما مُكلّفا بنشاط تجاري لفائدة أسرته، وإما مرافقا أو مبعوثا سياسيا أو دبلوماسيا للسلطان الوطاسي لدى القبائل والقوى السياسية والعسكرية المغربية أو لدى ملوك الدول.[1]

وأمـا الوزّان فإنه ينتمي لأسرة تجارية ومالكة لأراض زراعية[2]، وقد كسب بعض خبراته الأولى بشؤون المعاملات والاقتصاد من خلال مجموعة من المحطات، منها: مرافقتَه لوالده، منذ صغره، لاستخلاص الضرائب من القبائل لفائدة المخزن، واشتغالَه كاتـبا بأحد بيمارستانات فاس مدة عامين يدوّن واردها وصادرها، على عادة صغار الطلـبة في ذلـك الوقـت[3]، وانتصابَه للشهادة مع عدول فاس الرسميين، ومرافقتَه السلطان في بعض حرَكاته، وكثرةَ رحْلاته الداخلية والخارجية، وتكوينَه العلمي، الذي جعلـه ملمّا بكثير من علوم المسلمين في عصره، لاسيما الحساب[4]، ومعرفتَه ببعض اللغات الأجنبية والأوربية بشكل خاص[5]... كل هذا ساعده على أن يستوعب جيّدا

---

[1] في عام 917 هـ/1511م رافق الوزان عمه الذي كان مكلفا بسفارة من السلطان الوطاسي محمد البرتغالي إلى ملك سنغاي محمد أسكيا الكبير، وقد سلكت البعثة في الذهاب الطريق الغربي عبر مراكش-درعة، وسلكت في الإياب طريق سجلماسة-فاس. راجع ما قاله بشأن جبل آيت واوزّكيت، م. ن.، 1: 134-138.

[2] كان للوزان الأب مثلا أملاك بجبل بني جنفن بالريف. م. ن.، 1: 263-264.

[3] م. ن.، 1: 181.

[4] من بين تلك العلوم: اللغة وآدابها، والعقائد والفقه والتصوف، والتفسير والقراءات والحديث، والمنطق، والفلك، والحساب. راجع: المترجمان، م. ن.، 1: 4.

[5] نرجح أن يكون الوزان قد تعلم في صغره، اللغة القشتالية أو غيرها من اللغات المستعملة في شبه الجزيرة الإيبيرية، إما بالاحتكاك المباشر بالإيبريين أو عن طريق والديه، ذلك لأن الوزان ولد في غرناطة قبل سقوطها في يد الإسبان وانتقل في صباه مع أسرته إلى فاس. كما أنه كان على دراية باللغتين الإيطالية واللاتينية، فقد قام هو نفسه بترجمة

المحـــيط الـــذي عاش فيه وتحدّث عنه، وجعله يدرك تماما وعن وعي أهمية المعلومات الاقتصادية أو غيرها من المعلومات التي أوردها بالأرقام الغزيرة جدا في كتابه، حتى لقد وُصف بالحيسوبي الماهر بسبب ذلك.[6] أو ليس هو ابن مستخلص لواجبات بيت المال من القبائل؟

ويُهِـــمّ الحضـــور القـــوي للأرقام أعداد السكان[7]، بصفتهم منتجين للخيرات ومستهلكين لها أو فرسانا، ومداخيل المخزن ونفقاته[8]، وأجور موظفين[9]، ونفقات بـــناء مؤسســـات اجتماعية[10]، وأعداد مؤسسات دينية وإنتاجية[11]، وأحيانا قيمة رســـوم[12] وأسعار[13]... وغير ذلك مما يجعل مصدرنا هذا مفيدا بامتياز للباحث في التاريخ الاقتصادي.

وعـــلاوة على ذلك هناك تشديد على دور الضرائب والمغارم في حياة القبائل وأوضـــاعها الاقتصادية والاجتماعية وثرواتها الزراعية والحيوانية، واهتمام كبير بأنواع

كتابه "وصف إفريقيا" إلى الإيطالية ووضع معجما عربيا عبريا لاتينيا... راجع مقدمة المترجمَيْن، م. ن.، 1: 4 و10-11 و12.

[6] المترجمان، م. ن.، 1: 5.

[7] قدّم الوزّان أرقاما كثيرة عن أعداد الكوانين أو الفرسان بالنسبة لسكان البوادي. راجع: م. ن.، هنا وهناك.

[8] ذكر الوزان أن دخل بيت المال قليل، لا يكاد يبلغ ثلاثمائة ألف مثقال، نصفه يتكون من مواد عينية، ولا يصل إلى يد السلطان منه حتى خمسه، إذ ينفق الباقي في عدّة أوجه حددها. راجع: م. ن.، 1: 220–225.

[9] منها، مثلا، أن القابض الذي يجمع إيرادات جامع القرويين يتقاضى مثقالا واحدا في اليوم، وكُتّابه 6 مثاقيل في الشهر، والمساعدين، الذين يستخلصون أثمان كراء الدور والدكاكين وغيرها، يتقاضى كل منهم 5 % من المبلغ الذي يحصّله مقابل أتعابه، ويتقاضى الأعوان 3 مثاقيل في الشهر لكل واحد منهم. (م. ن.، 1: 178) وتتراوح أجور الأساتذة بين 100 و200 مثقال في الشهر (م. ن.، 1: 179) وأجرة الكاتب ببيمارستان فاس 3 مثاقيل شهريا. م. ن.، 1: 181...

[10] مثلا، بلغت مصاريف بناء مدرسة بفاس 480.000 مثقال. م. ن.، 1: 179.

[11] تتعلّق معظمها بفاس، ومنها أعداد المِيضآت والمساجد، وأفران الجير والآجر، والمدارس، والحمامات والفنادق، والدكاكين... راجع: م. ن.، 1: ابتداء من ص. 176.

[12] نذكرها لاحقا.

[13] راجع: م. ن.، هنا وهناك.

الصناعات والحرف والتجارات، ومواقع المناجم والمعادن، وبأماكن ضرب السكة وبأنواع العملات وبطرق التبادل، وبوسائل القياس والمكاييل والأوزان، وبالظروف الطبيعية من مناخ وأحوال جوية وتربة وعوامل طبيعية مؤثرة في الإنتاج، وبحياة البراري وبخيرات الأنهار والبحار وأحوالها... وغير ذلك مما يجعل من "وصف إفريقيا" كتابا مختلفا عن كثير من كتب الرّحلات التقليدية الأخرى، التي يُعتبر كثير منها تكرارا أو نسْخا لأعمال السلف لفظا أو معنى، أو التي تقتصر على وصف سطحي لسير خط الرحلة والتقاط أخبار ما يُشاهد أو يُرْوى من طرائف وغرائب وعجائب.

لكل هذا ولغيره لا يسعنا إلا أن نردّد مع من قال[14] إن من أبرز مزايا هذا الكتاب الذّهنيةَ المنفتحةَ التي كُتب بها، حتى إن نقادا أوربيين اعتبروه تأليفا عربيا بتفكير أوربي، أو مُصطبغ بصبغة أوربية. لقد استفاد الوزان كثيرا من عمله الإداري وصلته بالبلاطين الوطاسي والسعدي في تحديد عباراته عندما كتب، مثلا، عن القبائل فأتى بإحصاءات شبه مدققة عنها، وبالتقسيمات السياسية، وبمبالغ الخراج، وما إلى ذلك مما له صلة بالتاريخ الاقتصادي.

ولا شك في أن تقدير الأوربيين لكتاب الوزّان واعتباره مصدرا أساسيا عن إفريقيا منذ القرن 16م، وطوال الفترة الاستعمارية، لم يكن الباعثُ عليه إشباع الفضول أو الوقوف على غرائب وعجائب إفريقيا والمغرب خاصة، ولا تأكيدُ أو نفيُ ما علق بمُخيّلة المسيحيين من صور نمطيّة عن عالَم مجهول عند معظمهم، وإنما جمْع أفكار ذات مصداقية عن حقيقة المقدرات الاقتصادية لهذا العالَم الذي تتدفق عليهم منه ثروات طائلة محلية وعابرة، لأنها من عالم من أبنائه، عارف بخباياه وأسراره. إن هذا — في رأينا — هو الذي يفسّر لماذا أقبل الأوربيون على هذا الكتاب بالنشر والشرح

14 م. ن.، 1: 15.

والـــترجمة إلى لغـــات عديـــدة وطـــبعه في أكثر من مكان، على امتداد تلك الحقبة الطويلة[15].

معوقـــات الاقتصـــاد المغربـــي

يخرج الباحث من قراءة "وصف إفريقيا" بانطباع مفاده أن المغرب كان يتوفّر على مؤهلات اقتصادية متنوعة، طبيعية وزراعية وحيوانية وبشرية، مهمّة للغاية، كانت من وراء تطور الحرف والصنائع والتجارة وإقامة أسواقٍ أسبوعية بمختلف القبائل يتردّد علـــيها الـــتجار مـــن عدة مدن[16]، وأخرى بجوار المدن يتردّد عليها القرويون[17]، بالإضافة إلى أسواق سنوية[18]، يدوم بعضها عدّة أسابيع، وكان يقصدها التجار من

---

15 نشر الكتاب أول مرّة في البندقية عام 1550، اعتمادا على مخطوط المؤلّف باللغة الإيطالية، ونفدت هذه الطبعة بعد أربع سنوات فأعيد نشره، وتجدّدت بعد ذلك هذه الطبعة أكثر من ست مرّات. وترجم الكتاب إلى اللاتينية اعتمادا على الطبعة الإيطالية الثانية، ونشر في بلجيكا عام 1556، وأعيد نشره فيها بعد عامين، ونشر مرة ثالثة في زيوريخ بعد سنة أخرى، ثم رابعة في لايد عام 1632. وعلى الترجمة اللاتينية اعتمدت الترجمة الهولندية الصادرة عام 1665 بأمستردام والترجمة الإنجليزية الصادرة في لندن عام 1600، التي أعيد طبعها عام 1896 مع شروح كثيرة. بينما اعتمدت الترجمة الألمانية المنشورة في هيربورن عام 1805 على الطبعة الإيطالية الأصلية. وأما أول ترجمة فرنسية للكتاب فكانت في عام 1564 بليون الفرنسية وأنفير البلجيكية اعتمادا على الطبعتين الإيطاليتين الأوليين، وأعيد نشرها في لايد عام 1564، وفي باريس عامي 1830 و1896 وأعيد نشرها بفرنسية حديثة في عام 1956 من قبل معهد الدراسات العليا بالرباط في جزءين. وهي الترجمة التي اعتمدها مترجما الكتاب إلى العربية. (مقدمة المترجمَيْن، م. ن.، 1: 18–19.) وأيضا: L. Louis Massignon, *Le Maroc dans les premières années du XVI^e siècle. Tableau géographique d'après Léon L'Africain*. Alger 1906, p. 7 et suiv.

16 من أسواق الهبط والريف وكرط، مثلا، هناك: سوق السبت ببني فَزّكّار الذي كان يقصده حتى الجنويون (م. ن.، 1: 248.) وسوق السبت بجبل وردان بكرط (م. ن.، 1: 269) وأسواق أسبوعية أخرى بجبل بني منصور (م. ن.، 1: 256) وبني زرويل (م. ن.، 1: 258) وجبل بني حيارة (م. ن.، 1: 259) وجبل بني وزروال (م. ن.، 1: 262) وجبل بني أحمد (م. ن.، 1: 263)، وأكلا بالهبط (م. ن.، 1: 239)...

17 مثل سوق الخميس بفاس (م. ن.، 1: 216)، وسوق الاثنين بمكناس (م. ن.، 1: 170) وبالقصر الكبير (م. ن.، 1: 236)

18 كان بعضها ينعقد بمناسبة مواسم الأولياء. ومن هذه الأسواق السنوية سوق أديكس بحاحا الذي كان ينعقد لمدة أسبوعين (م. ن.، 1: 80)، وسوق النخيلة (م. ن.، 1: 157) وسوق تاغية بتامسنا. م. ن.، 1: 162–163 ...

بلاد السودان، مثل سوق أو بالأحرى موسم جزولة[19]. ثم إن هناك موانئ على واجهتين بحريتين تستقطب التجار من مختلف الجنسيات الأوربية، ورحلات تجارية منتظمة إلى بلاد السودان[20]... وغني عن القول إن المغرب إنما ابتُلي بالاستعمار من أجل السيطرة على هذه الإمكانات والموارد. لكن وبالرغم من ذلك فإن الاقتصاد المغربي كان يتأثر بالعديد من المعوقات التي تحدّ من انتعاشه وتطوره ومن حدوث تراكم في آلياته، بعضها طبيعي وآخر بشري، حسب الوزّان، كما سنرى.

المعوقات الطبيعية

الأماكن الموحشة والثلجية

اعتبر الوزّان جبال الأطلس من المجالات التضاريسية الموحشة لقساوة بردها، وكثرة جدبها، وكثافة غاباتها، وشدة وعورة تضاريسها، لذلك فإن "المناطق غير المسكونة إما قارسة البرد وإما شديدة الوعورة، فالتي تواجه تامسنا وعرة، والتي تواجه موريطانيا باردة."[21] أما الأطراف التي يقال إنها معتدلة فهي التي يُعمّرها الناس، لكن لماء عيونها طعم التراب ويكاد يكون عَكِرا، لاسيما في القسم الجنوبي[22].

وتمتدّ وراء الأطلس بلاد جافّة وحارّة، لا توجد بها إلا أنهر قليلة تختفي في الرّمال، ويكوّن بعضها بحيرات، وليس بها إلا قليل من الأراضي التي يمكن زراعتها بأشجار النخيل خاصة، وما وراء هذه البلاد جبال جرداء، وليس هناك سوى بعض الآبار التي يكاد يجهلها الناس[23].

---

19 كان السوق السنوي لقبائل جزولة بسوس ينعقد لمدة شهرين. م. ن.، 1: 114-115.

20 مثلا كان التجار بمدينة تكاووست يحملون إلى تنبكتو وولاتة الثياب الصوفية (م. ن.، 1: 95-95)، وكان تجار تُرو هسكورة يصدرون الزيت والجلود والأعطية إلى بلاد السودان م. ن.، 1: 134....

21 م. ن.، 1: 58.

22 م. ن.، 1: 58-59.

23 م. ن.، 1: 60-61.

إن هـــذه المجـــالات، علاوة على قلة أهميتها الاقتصادية، كانت كذلك تؤثر بشـــكل من الأشكال في الحركة الاقتصادية ولاسيما في حركة المبادلات، نظرا لقلة مسالكها وصعوبة ممراتها، كما نعرض له بعد قليل.

– الريـــاح والضبـــاب

ســـجّل الوزّان أن الرّياح التي تهب من الشرق ومن الجنوب الشرقي ومن الجنوب بالغـــة الضّرر، لاسيما في شهري ماي ويونيه، لأنها تفسد جميع الغلاّت وتمنع الفواكه من النّموّ والنضج[24]. وعندما يسقط الثلج على سلسلة الأطلس في فصل الشتاء "تهبّ ريـــح خطيرة من الشمال فتقتل الحيوانات التي تصيبها في هذه الناحية، وتقضي على الناس كذلك."[25] ويضرّ الضباب كثيرا، هو أيضا، بالغلل، لاسيما إذا وقع في وقت الإزهار ودام النهار كله[26].

– العواصـــف المطريـــة والثلجيـــة والزوابـــع الرمليـــة

ســـجّل الـــوزّان أن أمطار شتنبر تفسد غلة التمور في الواحات[27]. وينجم عن التســـاقطات الكثيرة، في مناطق أخرى، عادة، فيضانات فتتلف البساتين وغيرها[28]. وتضـــرّ فيضانات الأودية، أحيانا، بحركة التبادل التجاري بسبب تعطّل عمليات عبور الأوديـــة[29]. كما أن توحُّل الطرق بسبب كثرة الأمطار يجعل حركة النقل والتّنقّل عسيرة وبطيئة، فترتفع أثمان نقل البضائع. ففي تيبوت سوس، مثلا، كان يُحمل بمثقال

---

24 م. ن.، 1: 65.

25 م. ن.، 1: 59.

26 م. ن.، 1: 65.

27 م. ن.، 1: 65.

28 كما كان يحدث عادة لبساتين مدينة تَشْرافَتْ، بحوز مرّاكش، التي كان يُتلفها واد أسيف المال في الشتاء ثم يأتي الأعراب في الصيف فيأكلون كل ما يجدونه فيها من الطّيّبات. م. ن.، 1: 100.

29 – مثلا كان يتعذّر عبور واد ماسة في الشتاء إلا بزوارق غير معدّة لهذا الشّأن. م. ن.، 1: 90. انظر كذلك ما سجله الوزّان بشأن أودية أم الربيع وبهت وسبو... م. ن.، 2: 247 و248 و249...

واحد من خمسة إلى ستة أحمال الجمل، وفي الشّتاء يصبح السعر العادي لحمل البضائع: إن لم يكن مرتفعا ولا منخفضا، مثقال واحد لثلاثة أحمال الجمل فقط[30].

وكانت العواصف الثّلجية، بدورها، تحد من حجم التبادل التجاري وتعرقله لعدّة أسابيع من السّنة، لاسيما حين تغمر الثلوج المسالك الجبلية القليلة بالأطلس، التي تصل الشمال بالجنوب. وتبدأ العواصف الثلجية عادة منذ شهر أكتوبر، وكثيرا ما تداهم المسافرين والقوافل التجارية، بتلك المسالك، وتقضي على الجميع[31].

وكانت الزوابع الرملية في الصحراء تخلف بدورها خسائر مماثلة. ففي غير فصل الشّتاء، كانت هبّ رياح قبْلية فتختفي معالم الآبار ويتعذّر العثور عليها، فيهلك الناس عطَشا[32]. لكن ومع ذلك فإن الوزّان جعل عملية عبور المسالك الجبلية خلال فصل الشتاء مغامرة أشدّ خطورة من اجتياز فيافي الصحراء الكبرى، لأن رحْلات القوافل التجارية عبر الصحراء كانت تُنظّم، عادة، في فصول معلومة، مثل فصل الشتاء، حيث يتوفر الماء والكلأ واللبن نتيجة لنزول الأمطار في أوقات معلومة[33]...

- الجفاف والقحط

يُميّز الوزّان بين الجفاف الذي يصيب المناطق البورية في الشمال، وبين الذي يحدث في مناطق السّقي بالواحات في الجنوب. وخاصية جفاف الشمال أنه يحدث، أحيانا، في فصل الربيع، في الفترة بين 15 فبراير و18 ماي، التي تتميز عادة بجوّ صاف ومعتدل نسبيا، "غير أنه إذا لم ينزل مطر فيما بين 25 أبريل و5 ماي تضرّر محصول

---

30 م. ن.، 1: 92.

31 م. ن.، 1: 59.

32 م. ن.، 1: 61.

33 لاحظ الوزّان أن الجوّ بالمناطق الصحراوية إذا تغيّر "عند منتصف غشت، واستمر هطول المطر إلى شهر نونبر وحتى أثناء دجنبر ويناير وطرف من فبراير، نتج عن ذلك وفرة الأعشاب، ووُجد حينئذ [...] بحيرات عديدة، وكثر اللبن. وهذا هو السبب الذي من أجله يقوم تجّار بلاد البربر في هذا الفصل برحلتهم إلى أرض السودان." م. ن.، 1: 65.

السّنة كثيرا."[34] لذلك يسمي الناس مطر هذه المدة "ماء نيسان" ويحتفظون به في قوارير صغيرة وزجاجات للتّبرّك به.[35]

أما جفاف الجنوب فيحدث، عادة، إذا لم تنزل تساقطات في جبال الأطلس، حيث تجفّ الأودية ويتعذّر سقي الأرض. وإذا لم يهطل مطر في أكتوبر فلن يكون حصاد في تلك السّنة، وإذا لم ينزل في أبريل انعدمت غلّة القمح في تلك النواحي.[36]

غير أن سكان الجنوب قد لا يتأثرون كثيرا إذا لم ينزل المطر في بعض الأشهر، لا سيما أمطار شهر شتنبر، التي تُفسد التمر، بينما إذا انحبس تجود غلته. ويفضّل السكان كثيرا غلّة التمر على غلة القمح، لأن الحبوب مهما كثرت لا تكفي لنصف السّنة، أما إذا جادت غلّة التمر فإن القمح لا ينعدم حينئذ، لأن تجار التمر من الأعراب والجمّالين يأتون بكمّيات مهمة منه لاستبداله بالتمر.[37]

- أسراب الجراد

شدّد الوزّان على دور الجراد في إلحاق الأضرار الجسيمة بالإنتاج الزراعي بفعل كثرته، لأنه "يشاهد، أحيانا، بإفريقيا كمّيّة وافرة من هذه الحيوانات، حتى إنها لتحجب ضوء الشمس عندما تطير مثلما يفعل السّحاب. تأكل من الأشجار الفواكه والأوراق. وتترك عند ذهابها بيْضا يتولّد منه جراد آخر يطير، لكنّه أسوأ من أمّهاته، يلتهم حتى لحاء الأشجار. وحيثما مرّ الجراد ترك مجاعة كبيرة..."[38] وذكر أيضا أنه كان مرّة مارا بأسفل مدينة تاكْنسّة، بإقليم حاحا، "في سنة كثر فيها الجراد جدّا في

---

34 م. ن.، 1: 63.

35 المكان نفسه. ويردّد الفلاّحون مثلا شعبيا يقول: "الشّتا دْيسانْ كَتْرُقد في الكيسانْ." المترجمان، م. ن.، إحالة رقم 90.

36 م. ن.، 1: 65.

37 المكان نفسه.

38 م. ن.، 2: 278-279.

وقت إخراج الزرع سنابله، وكان عدد الجراد ضعف عدد السنابل بحيث إن الأرض كانت لا تكاد تظهر، وذلك عام 919 [هـ/1513-14م]."[39]

- الحيوانات المفترسة

يلاحظ، في "وصف إفريقيا" حضور قوي للحيوانات المفترسة ولاسيما الأسود والذئاب، التي كانت كثيرا ما تهاجم المسافرين والتجار والحطابين والفحّامين والرّعاة والأنعام والدّوابّ فتقتل وتعطب[40].

المعوقات البشرية

- الجهل وقلّة الدّراية والخبرة

عزا الوزّان، في عدّة مناسبات، تواضع الحركة الاقتصادية وصعوبة الحياة الاجتماعية في بعض الجهات لجهل السكان وقلّة خبرتهم ودرايتهم، ويمسّ ذلك أكثر من قطاع، كما في النماذج التالية:

قطاع الفلاحة: لاحظ الوزّان قلّة اهتمام السكان، في عدّة جهات، بتنويع الإنتاج الزّراعي ولاسيما قلّة العناية بالبستنة والزراعات الشّجرية، بالرغم من توفّر مختلف العناصر الطبيعية الملائمة لذلك. وربط، في أكثر من مناسبة، بين فقر السكان أو سوء أحوالهم الاقتصادية وبين عدم اتخاذهم البساتين، كما في سهول بادية دكّالة، أو كما في تلال بني وارثين، التي كانت قراها "مؤلفة من دور فقيرة، والسكان ضعفاء لا يغرسون كرما ولا يتخذون بساتين ولا أشجار مثمرة."[41] وقد ردّ الوزّان أسباب ذلك -على حد قوله- للذّكاء المحدود للسكان، مثل سكان بادية تيط[42]، أو لقلّة

---

[39] م. ن.، 1: 83.

[40] انظر ما قاله الوزّان عن هذه الحيوانات المفترسة في غابات سكيم (م. ن.، 1: 147)، وجبل مغران (م. ن.، 1: 148)، والمعمورة (م. ن.، 1: 166)، وتَفْلَفْلْت (م. ن.، 1: 168-169)، وسهب المرجة (م. ن.، 1: 284)... وصحراء أنكاد (م. ن.، 2: 11)...

[41] م. ن.، 1: 230.

[42] سخر الوزّان أن تيط بدكالة "تحيط بها بادية واسعة حيث ينبت الزرع بكثرة كاثرة، ويسكنها قوم ذوو ذكاء محدود، لا يعرفون إنشاء حديقة ولا أي شيء آخر يلفت النظر." م. ن.، 1: 120.

الذكاء والجهل بكيفية الحرث أصلا، مثل سكان بادية أسفي[43]، أو للجهل بالبستنة على وجه الخصوص، مثل أهل بادية السُّبِّيتْ بدكالة وأهل حاحا[44].

وعلاوة على الجهل بأمور الزراعة والبستنة خاصّة، كان السكان، في بعض المناطق، يجهلون أيضا القيمة التجارية لبعض المنتوجات كالشّمع، الذي كان مطلوبا بكثرة من الأوربيين، ومع ذلك كان الناس في إداو إزكواغن وفي إقليم حاحا عامّة يلقون به في المزابل لكثرته ولأنهم لا يعرفون ما يصنعون به[45].

الصّناعات التحويلية: سجّل الوزّان جهل سكان بعض المناطق بكيفية تحويل منتوجات زراعية إلى سلع تجارية جيدة، ومن ذلك، مثلا، أن سكان تيوت سوس كانوا لا يحصلون من زراعة قصب السكر إلا على سكّر أسود رديء لجهلهم طريقة طبخه وتصفيته. ومع ذلك كان التجار يتقاطرون على هذه البلاد من مراكش وفاس وبلاد النيجر لشرائه[46]. وكان سكان جبل بني مزگلدة، من جهتهم، يجهلون كيفية صنع الصابون الصلب المستخرج من زيت الزيتون[47]، بينما كان أهل حاحا يجهلون الصابون أصلا ويستعيضون عنه بالرّماد[48].

الصناعات المعدنية: سجّل الوزّان في عدة مناسبات وبحسرة كبيرة جهل المغاربة قيمة بعض المعادن والمناجم أو كيفية استخراجها وتصنيعها، ومن ذلك جهل سكان

---

43 قال الوزّان بشأن أحواز مدينة آسفي إن "الأرض المحيطة بالمدينة خصبة جدا، إلا أن الأهالي غير أذكياء، لا يعرفون كيف يحرثونها ولا حتى كيف يغرسون فيها الكروم." م. ن.، 1: 116.

44 سجّل الوزّان، مثلا، أن السُّبِّيتْ بدكالة "تخضع لأعراب دكّالة. وهي تنتج كثيرا من القمح والعسل. لكن لا ترى بها بساتين ولا حقول كروم لجهل سكانها." (م. ن.، 1: 121.) وقال بشأن إقليم حاحا إنه "يوجد فيه أيضا قليل من الفواكه، لا لعدم خصب التربة بل لجهل السكان." م. ن.، 1: 75.

45 إداو إزگواغن (م. ن.، 1: 81) وحاحا، م. ن.، 1: 75.

46 م. ن.، 1: 91.

47 م. ن.، 1: 264. قد يكون التبس الأمر هنا على الوزّان، إذ قبيلة سطّة، المنتمية لقبيلة أوْرَبَة، المجاورة لقبيلة بني مزگلدة، من العرب، حتى الآن هي التي تعرف إلى اليوم بكثرة أشجار الزيتون وبجودة زيوتها، كما كانت مشهورة إلى عهد قريب بصناعة الصّابون. وبني مزگلدة تنطق اليوم بزاي ساكن وكاف معقوف.

48 م. ن.، 1: 77.

جبل دادس قيمة ملح البارود الذي يتوفّر بكثرة في جبلهم[49]، وجهل سكان جبل بني سعيد بكرط كيفية تحويل الحديد المستخرج من بلادهم إلى قضبان حديدية فكانوا يصدّرونه إلى فاس في شكل سبائك[50]، وجهل أهل جبل هنتاتة طريقة استخراج المرمر من أرضهم وصقله، بل حتى كانوا لا يَقْدُرونه، بالرغم من جودته العالية الظاهرة في شدّة بياضه وصفائه[51]...

الصنائع والحِرف: سجل الوزّان تفشي جهل الناس في بعض المناطق بالحرف والصنائع بما فيها البسيطة الواسعة الانتشار، ومن ذلك أن مجموعات من سكان إقليم حاحا لم يكن من فيها من يعرف نسج الكتان[52]، حتى لقد كان الناس في إداوْ عاقلْ، مثلا، "لا يلبسون قميصا ولا ثوبا مخيطا بالإبرة، إذ ليس عندهم من يحسن الخياطة وإنما يلتفّون بقدر الإمكان في قماش."[53]...

المواصلات النهرية: تأسّف الوزّان كثيرا لعدم استغلال الأنهار الكبيرة في نقل السّلع والبضائع التجارية، بالرغم من أن بعضها صالح للملاحة، ليس عند مصبّاتها فقط، بل وعلى طول مجراها، لاسيما في فصلي الشتاء والربيع، مثل وادي سبو، الذي قال إنه صالح للملاحة تماما، لكن نظرا لجهل أهل البلاد لا يوجد فيه قارب مسطّح ولا زورق واحد لحمل أي شيء كان. ولو استعمل أهل فاس نهر سبو للملاحة لنتج عن ذلك بالتأكيد انخفاض في سعر القمح إلى النصف. لأن نقل القمح من أزغار إلى فاس يكلّف نفقة الحِمْل المنقول ما تكلّفه نفقة شرائه، ومع ذلك فإن القمح يباع في

---

[49] سجّل الوزّان بحسرة كيف أن جبال دادس كانت بها العديد من الكهوف الغنية بملح البارود تستعمل مأوى للحمير والماعز، وقال بصدد ذلك: "وأعتقد أنه لو كان هذا الجبل مجاورا لإيطاليا لأغلّ سنويا خمسة وعشرين ألف مثقال فأكثر. لكن هؤلاء الدّهماء لا يعرفون قيمة ملح البارود." م. ن.، 1: 149.

[50] م. ن.، 1: 268.

[51] م. ن.، 1: 112.

[52] م. ن.، 1: 76.

[53] م. ن.، 1: 87.

فاس بثلث مثقال، رغم تكاليف النقل برّا بواسطة الدّوابّ، ولو نقل عن طريق الماء لما بلغ ثمن الحمل الواحد حينئذ حتى ربع مثقال[54].

لقد ضيّع المغاربة على أنفسهم إمكانية الاستفادة من الأنهار في نقل السلع والبضائع بأثمان رخيصة بسبب جهلهم[*]، ليس هذا فقط، بل إن بعض تلك الأنهار، كما يُستنتَج من ملاحظات الوزّان، كان يشكل حواجز طبيعية أمام حركة النقل والتنقّل إذ لم يكن ممكنا خوضه إلا من مشارع معلومة، ويتعذّر ذلك تماما في فصلي الشتاء والربيع[55]، فكان أهل القرى، الواقعة على ضفاف هذه الأنهار، يجيزون الناس والأمتعة باستعمال وسائل بسيطة، كاستعمال شبه مراكب مثبّتة على قِرب منفوخة، كما في أم الربيع[56]، وفي أحسن الأحوال استعمال زوارق صغيرة للعبور غير معدّة لذلك، كما في واد ماسّة[57].

الصّيد النهري: لاحظ الوزّان أن الناس في بعض الجهات يجهلون حتى كيف يصطادون الأسماك من الأودية، فوادي زا، مثلا، كان يتوفّر "على سمك كثير. إلا أن أهل البلاد، وهم جُهّال، لا يستطيعون صيده لسببين: الأول عدم امتلاكهم آلات الصّيد، والثاني شدّة صفاء الماء، وذلك غير صالح للصيد."[58]

- البطالة والتكاسل والإهمال

عزا الوزّان في مناسبات عديدة سوء أحوال الناس وتواضع أوضاعهم الاقتصادية في عدة جهات لعامل البطالة، كما في تَشِّيتْ، حيث "الفقر هنا من نصيب

---

54 م. ن.، 2: 249.

(*) بدا تراجع الملاحة المغربية واضحا في عصر المرينيين وبلغ ذروته في القرنين 9 و10 هـ/16 و17م مع سيطرة الإيبريين على معظم الثغور الساحلية المغربية ومنعهم المغاربة من الحصول على المواد والخبرة اللازمتين لبناء السفن مما عمّق من جهلهم بشؤون الملاحة بصفة عامة. وهذا ما لم يصرّح به الوزّان.

55 لاسيما بالنسبة لأنهار أم الربيع وسبو وملوية. راجع: م. ن.، 2: 247 و249 و250.

56 م. ن.، 2: 147.

57 م. ن.، 1: 90.

58 م. ن.، 2: 250.

الجميع" بسبب ندرة الموارد، ولأن "سائر النساء يبقين عاطلات أيديهن في حزامهن"، باستثناء اللواتي يدرّسن الأطفال أو يغزلن الصوف[59]، أو كما في جبل دادس، الذي كان سكانه "لا يمارسون أية صناعة" ويقضون معظم الأوقات في التلصص والخصومات ونهب المسافرين، لذلك كان "التجار لا يقصدون هذا البلد لأن أهله يعيشون في بطالة."[60]

وردّ الوزّان، في مناسبات أخرى، سوء الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للسكان لعاملي الإهمال والتكاسل، كما جاء في وصفه لسكان إداو إزكواغن، الذين لم يكن يوجد بداخل مدينتهم ولا بخارجها أي بستان أو كرم أو شجر، بالرغم من أن نهرا صغيرا يجري تحت مدينتهم، "ولا سبب لذلك غير إهمال السكان وتكاسلهم، لدرجة أنهم لا يبحثون عن طعام آخر غير الشعير وزيت الهرجان."[61]

وغني عن القول إن مثل هذه الظواهر تنتج عنها ظواهر أخرى تنعكس جميعها سلبا على الحركة الاقتصادية وأحوال السكان، ومنها البخل الذي ينتشر كثيرا بين سكان مثل هذه التجمعات المُهمِلة، ولاسيما الواقعة منها على الطرق الرئيسة، وما أكثرها، حسب الوزّان.[62]

– بُعد الأسواق عن مناطق الإنتاج وغياب المرافق الضرورية لنزول التجار

تحدّث الوزّان في مناسبات مختلفة عن كثرة الإنتاج في بعض المناطق وزيادته عن الحاجة المحلية لاسيما بالنسبة للفواكه، حتى إنها كانت لا تباع لكثرتها، كما في الشعاب المجاورة لآيت عتاب[63]، أو تترك بساتينها مفتوحة في وجه الغرباء والتجار،

---

59 م. ن.، 2: 115-116.

60 م. ن.، 1: 149.

61 م. ن.، 1: 81.

62 يقول الوزّان عن سكان قُصْر بُلا حيا، مثلا: "وقد سُمّي [هذا القصر] بهذا الاسم لأن سكانه كانوا في غاية البخل، كما هو الشأن في جميع المدن الواقعة في طريق المسافرين." م. ن.، 1: 229. انظر كذلك ما سجّله بشأن تُنْصُر. م. ن.، 1: 238-239.

63 م. ن.، 1: 145.

كمـــا في أفرا بتادلا دائما.[64] وكان إنتاج الدّهون كاللبن والجبن والسمن كبيرا جدّا في مناطق أخرى مثل تـــكـــوداست بهسكورة...، لكنها لا تباع في البلد، لأن كل الناس يملكون الماشية الصغيرة بكثرة. أما الجلود والصوف والزيت فتباع في أماكن تبعد بمسيرة سبعة أيام أو ثمانية.[65]

وهكذا يظهر أن هذه المواد، بالرغم من أهميتها وإنتاجها الوفير، لم تكن ذات جدوى اقتصادية بالنسبة للمنتجين، الذين لا نعرف ماذا كانوا يصنعون بالفائض، إنما نـــرجح أن جـــزءا كبيرا من هذه المواد كان يتعرض للتلف، إما بسبب عدم إمكانية حفظـــه أو لصـــعوبة تسويقه، لبعد الأسواق، أو لأن منتجي هذه الموادّ لم يكونوا قد تأثروا بعد بعقلية السوق، ليس فقط لبعد هذه الأسواق عنهم، بل وأيضا لأن حاجاتهم كانت قليلة تكاد تقتصر على الضروري، الذي يتمّ الحصول عليه بالجهد الشخصي أو بالمقايضة، التي كثيرا ما تُغْني عن النقود[*] وبعد الأسواق.

وقـــد نتج عن بعد الأسواق عن مناطق إنتاج مثل هذه الموادّ أن ظلّت العديد مـــن الجهات والشرائح الاجتماعية على هامش السوق، راضية باقتصاد الكفاف، مما كان يحدّ من الرواج الاقتصادي القائم على النقد وكذا من نشاط التجار وقلّة ترددهم على تلك المناطق، لاسيما وأن كثيرا منها كان يفتقد إلى المرافق الضرورية لإيواء هؤلاء التجار، كما في مدينة تَدْنِست بإقليم حاحا، التي لم يكن بها فندق ولا حمّام أو حلاّق وإنما ينزل التجّار ضيوفا على السكان.[66]

---

64 المكان نفسه.

65 م. ن.، 1: 133.

[*] والملاحظ أيضا أن الناس، في بعض الجهات كما بأحواز وزّان، كانوا إلى عهد قريب جدّا يجدون حرجا في بيع زيتهم أو قمحهم أو ما ينتجون من فواكه وخضر وغيرها، بل لا يستسيغون ذلك ويعتبرونه إهانة ومذلة وعملا غريبا غير مألوف، لذلك كانوا يفضّلون التبرع بما يزيد عن حاجاتهم منها، حتى إن الفلاح يجني بحيرته أو غلّة جنانه فيأخذ مما جنى حاجته ويترك الباقي جانب البحيرة أو البستان لكل راغب فيه. ولا يزال الناس يتحدثون عن هذه الظاهرة إلى اليوم، ويعتبرون ذلك الزمان أيام خيرات وتلك الوفرة من بركات الجود.

66 وصف إفريقيا، م. س.، 1: 78.

- تعـــدد العمـــلات[*] وطـــرق التبـــادل التجـــاري

ترتّب عن تفكك أوصال البلاد رواج العديد من أنواع العملات، التي كانت تضـــرب محليا فظهرت مناطق نقدية كثيرة حتى داخل الإقليم الواحد أحيانا. وهكذا فإلى جانب العملة التي تضرب بفاس لصالح المخزن الوطّاسي[67]، راجت في الأسواق المغربـــية أيضا سكة ذهبية، كالتي كانت تضرب في بعض قصور سجلماسة[68] وفي جبل تازيتة.[69] واعتبر التِّبْر خاما بدوره سكّة وحيدة للتعامل، كما في منطقة تيوت سوس.[70] وسُكّت نقود فضية في جهات أخرى، كما في بعض قصور سجلماسة[71] وفي تَدْنِسْت وأديكيس بحاحا.[72] وراجت كذلك قطع نقدية حديدية.[73] وبالإضافة إلى هذه العملات المغربية كان التجار الأجانب يروّجون، من جهتهم، عملات أجنبية مختلفة، لاسيما بالموانئ.[74]

غير أن القطع النقدية المغربية المختلفة، كما أثبت أحد الدارسين[75]، لم تكن تحافظ دائما على أوزانها الأصلية بسبب تعرّضها للنقص أثناء التداول، علاوة على أنها كانـــت غير دقيقة الصنع لعدم توفر الدقة في أغلب الموازين، كما أن أشكالها كانت رديئة مما أوجد تشابها كبيرا بين تلك القطع المتفاوتة في الوزن والقيمة، مما كان يؤدّى،

---

[*]- عن تعدد العملات راجع: عمر أفا، النقود المغربية في القرن الثامن عشر: أنظمتها وأوزانها في منطقة سوس، مع تحقيق رسالتين في النقود والأوزان لعمر بن عبد العزيز الـــكرسيفي، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1993، ص. 41 وما بعدها.

67 وصف إفريقيا، م. س.، 1: 219.

68 م. ن.، 2: 126.

69 م. ن.، 1: 137.

70 م. ن.، 1: 92. عن رواج دينار التبر، راجع: عمر أفا، م. س.، ص. 47.

71 م. ن.، 2: 126.

72 م. ن.، 1: 78 و80. وكانت السكة الفضية بتدنست مربّعة الشكل.

73 لاسيما بتيوت سوس. م. ن.، 1: 92.

74 م. ن.، هنا وهناك. راجع بصفة خاصة ما سجله المترجمان، م. ن.، 1: 22.

75 - عمر أفا، م. س.، ص. 11 و42.

أحيانا كثيرة، إلى عدم قدرة الناس على التمييز بينها، ومن ثم إلى إثارة نزاعات وخصومات بينهم.

واستعملت كذلك عملات عينية، كما في تيبوت سوس، حيث كانت تروج أيضا، إلى جانب التبر ونقود حديدية، قطع صغيرة من القماش الأوربي اعتُبرت عملة للأداء، قيمة القطعة الواحدة منها مثقال[76]. وفي جبل بني يستيتن كانت تستعمل صفائح الخيول كذلك عملة، لعدم توفّر نقود بالبلد أو لندرتها جدا به[77]...

ويظهر أن تعدّد طرق التبادل التجاري وكثرة العملات واختلاف أنواعها وأحجامها وقيمة ما تحويه من معادن نفيسة حتى بين القطع النقدية من الوحدة نفسها، كان يجعل التجار يفضلون "التعامل بالميزان عوضا عن الأعداد، لأنه أضبط للمعاملة..."[78] كما كان يجعل من عملية الصرف وأسعار العملات في مقابل بعضها والعملية التجارية برمّتها عملية معقّدة للغاية، مما كان يستوجب من التجار اتخاذ الحيطة والحذر، وكان من نتائج ذلك -على ما يبدو من وصف الوزّان- الاعتماد أكثر، في جهات عديدة، على المقايضة في التبادل عوض النقود، كما في مدينة تقتنة الساحلية، التي كان البرتغاليون يقصدونها ليقايضوا سلعهم بالشمع وجلود الماعز[79]. أو في هسكورة، التي كان التجار الفاسيون يقصدونها لاستبدال نسيجهم بالجلود والسّروج[80]. وكان الهسكوريون، من جهتهم، يستبدلون مصنوعاتهم الحديدية وغيرها في الجنوب بالعبيد والنيلة وجلود الحيوانات الصحراوية التي يصنعون منها دروعا جميلة يستبدلونها بدورها بالأغطية والمنسوجات الفاسية.[81] وكان عدد من

76 وصف إفريقيا، م. س.، 1: 92.

77 م. ن.، 1: 279.

78 عمر أفا (عن عمر الكرسيفي)، م. س.، ص. 69.

79 وصف إفريقيا، م. س.، 1: 86.

80 م. ن.، 1: 129.

81 المكان نفسه.

تجسار الحديسد يقصد وردان بكرط لمقايضة أجهزة الخيل والزّيت بحديد المنطقة[82]، وكذلك فإن صانعي الأدوات النحاسية والحديدية في جزولة كانوا يحملون مصنوعاتهم إلى السبلاد المختلفة ليستبدلوها بالثياب والتوابل والخيول وسائر ما يحتاجون إليه[83]، بالرغم من أن هذا الإقليم كان معروفا بكثرة رواج النقود بين أهله[84]...

وممسا يؤكسد تحبيذ التجار المقايضة على غيرها من طرق التبادل أن الفاسيين كانوا يصدّرون إلى تغزة بتادلا العديد من أنواع البضائع والسلع "فإذا أراد التجار بيع هذه الأشياء عن طريق المبادلة سهل عليهم ذلك، لأن لأهل البلاد بضائع مختلفة [...] وإذا أرادوا بسيعها نقدا كان عليهم أن يخفّضوا الثمن كثيرا وتُؤدّى لهم القيمة حينئذ ذهبا بقطع شبيهة بالمثاقيل لكنها غير مسكوكة."[85] ويُستنتج من كل هذا أن تداول النقد عن طريق المبادلات التجارية كان محدودا بالمقارنة مع طريقة المقايضة.

- كثسرة رسسوم المسرور وارتفاعهسا

ترتّب عن ضعف السلطة المركزية تقوية نفوذ زعماء القبائل والأمراء المحليين في المسناطق النائية والوعرة، حتى إنهم وضعوا حواجز جمركية على حدود أقاليمهم أو محسالات تسنقّلاتهم وفرضوا الرسوم ورخص المرور على التجار والمسافرين واستأثروا بإيسرادها. وبلغ الأمر إلى حدّ إن قبائل عديدة كانت لا تكتفي بفرض الرّسوم على القوافسل السّتجارية فقسط، بل وكانت تتبادل رخص المرور في ما بينها لكي يتمكن أفرادها أنفسهم من التنقل والاتّجار بأمان، كما كان يفعل أهل جبال زيز مع جيرانهم الأعراب.[86]

---

82 م. ن.، 1: 269.

83 م. ن.، 1: 114.

84 أكد عمر أفا أن "الاقتصاد النقدي" كان أكثر شيوعا في المدن الواقعة شمال سوس وأقل شيوعا في المناطق الجنوبية الممتدة عبر الصحراء وبلدان إفريقيا التي كانت لها علاقات تجارية مع المغاربة. م. س.، ص. 33.

85 وصف إفريقيا، م. س.، 1: 139.

86 م. ن.، 1: 288.

ويُلاحظ أن فرض رسوم المرور لم يكن دائما بسبب الحاجة إلى المال، بل فقط لمجرد تأكيد بعض الزعماء السيادة على مناطق نفوذهم حتى إن منهم من كان يُلحّ على استضافة التجار وينفق عليهم أكثر مما يأخذ منهم بأضعاف مضاعفة.[87]

وكانت هذه الحواجز أو رخص المرور منشرة في كثير من الرّبوع، كما في تغتنة الساحلية، التي كان بها جمرك ويفرض أهلها ضريبة الملح، وتقسّم جميع المداخيل بين الرجال القادرين على الدفاع عن المدينة[88]، وفي تكّيت بسهول تامسنا، حيث يؤدي التجار رسوم مرور عن كل حِمل كتّان أو قماش[89]، وفي جبال تاكتسة لجاحا[90]، وجبال سكيم بتاد[91]، وجبال دادس[92]...

وتعدّدت هذه الحواجز، بصفة خاصّة، على المحاور التجارية والطرق الرئيسة المهمة، مثل محور فاس-بلاد السودان[93]، وكان أكثرها بإقليم سجلماسة، في أم العفن[94]، والخنك، ومضغرة على وادي زيز[95]...

وقد كان الإذن بالمرور يكلف التجار "أداء مبالغ باهظة"[96]، ففي الخنك كان يفرض ربع مثقال عن كل حِمل جمل[97]. وفي أمّ العُفّن يفرض هذا المبلغ عن كل

87 م. ن.، 1: 47-48.
88 م. ن.، 1: 86.
89 م. ن.، 1: 158.
90 م. ن.، 1: 83.
91 م. ن.، 1: 146.
92 م. ن.، 1: 149.
93 م. ن.، 1: 49.
94 م. ن.، 2: 129.
95 م. ن.، 2: 122 و123.
96 كما في حيل سكيم. م. ن.، 1: 146.
97 م. ن.، 2: 122.

حمل جمل وعن كل يهودي.[98] أما في جبال دادس فكان بعض الرؤساء المحليين يفرض أداء ربع ثمن البضاعة.[99]

وعلاوة على كل هذا كان من عادة التجار أن يستأجروا لحمايتهم، في المناطق غير الآمنة وما أكثرها، رجالا مسلّحين ببنادق أو قذّافات بأجرة شهرية تتراوح بين عشرة واثني عشر مثقالا بالعملة المحلية.[100]

لقد كانت هذه العوامل مجتمعة تقلّل من أهمية التبادل والنشاط التجاري ومن هامش الربح لدى التجار، لأن كثرة الرسوم ورخص المرور واستئجار الحُماة (السرّطاطين) كان يجعل كلفة البضائع مرتفعة ويحصر المنتفعين بتلك السلع، غالبا، في فئات قليلة من القادرين على اقتنائها، ولأن التعاطي للتجارة كان يشكل في حدّ ذاته مغامرة ومخاطرة بسبب ضعف أجهزة المخزن وقلّة الأمن.[101]

- ثقل الضرائب والمغارم والإتاوات

لاحظ الوزّان أن ثقل المغارم وكثرة الإتاوات وطبيعة السياسة الضريبية القائمة على الإجحاف كانت من أكثر العوامل المؤثرة سلبا في الحياة الاقتصادية، وتأكّد من وصفه ما ذهب إليه ابن خلدون من أن حدوث العُدوان على الناس في أموالهم يُذهب آمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرون من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعية عن السعي في الاكتساب.[102]

---

[98] م. ن.، 2: 129.

[99] م. ن.، 1: 149.

[100] كما في إقليم هسكورة وفي أحواز المدينة، حاضرة الإقليم. م. ن.، 1: 129. وتُعرف ظاهرة الاستئجار هاته في تاريخ المغرب بـ"الزطاطة"، ويعرف العامل المستأجَر بـ"الزطّاط".

[101] ذكر الوزّان، مثلا، أن صحراء أنكاد، بالمغرب الشرقي، كانت مأوى لعصابة لصوص من الأعراب على استعداد دائم للفتك بالمارين من هناك، حيث الطريق المؤدية من فاس إلى تلمسان. وقلّما ينجو التجار من شرّهم، لاسيما في فصل الشتاء، لأن الأعراب المُستأجرين للحفاظ على الأمن في البلاد يكونون قد رحلوا عنها آنذاك إلى نوميديا، ويبقى سنهم غير المستأجرين وحدهم ليتعيّشوا من اللصوصية. م. ن.، 2: 11.

[102] عبد الرحمن ابن خلدون، المقدّمة، دار البيان، د. ت.، ص. 286.

إن مثل هذه السياسة تورث الخصاص والفقر وتثبّط العزائم على الإنتاج، لاسيما إذا كانت تلك المناطق محدودة الموارد والإمكانات أصلا، وإذا كانت تلك المُتحصّلات لا تنفق في ما يعود بفوائد اقتصادية أو اجتماعية مجدية للبلاد وللعباد، ولاسيما أيضا في ظل تعدد الجهات الفارضة لتلك المغارم، كما كان الحال في عصر الوزان بسبب الفوضى السياسية واستبداد الأمراء والزعماء المحليين بالقبائل. فمدينة أمزميز وأحوازها، مثلا، كان الأعراب وأمير مراكش مجتمعين يثقلون كواهل سكانها بالإتاوات حتى غدا معظم البادية غير مأهول، بل وغادر سكان المدينة أيضا مدينتهم وقد فقدوا أموالهم[103]...

وعلّق الوزّان على الجور في الجباية بالقول إنه "منذ اختفاء شيوخ الإسلام، اتخذ الملوك [...] تدابير جبرية. ولم يكفهم اغتصاب تلك الإيرادات جملة وإنفاقها بحسب هواهم، بل أضافوا إليها ضرائب جديدة، بحيث لا يوجد في إفريقيا كلّها سوى القليل من الفلاّحين الذين يستطيعون توفير ما يلزمهم ضرورة من لباس وطعام [...] وتعتبر أموال أولئك الحكّام أحقر مما لو كانت أموالا مسروقة."[104]

وقد برهن الوزّان على هذه الملاحظة بأمثلة عديدة لقبائل أُفقرت بسبب كثرة المغارم، وتجلى ذلك بوضوح في عدم قدرة الناس على ارتداء اللائق من اللباس، كما في جبال الهبط[105]، وجبال بني زرويل وتيزرن وبني أحمد بالريف[106]... بل إن المخزن أو رجاله كانوا، في كثير من الأحيان، يتعمّدون وضع "أيديهم دائما على أموال الأفراد الخصوصيين، بحيث إن الذين يُفترض فيهم أن يكونوا أغنى الناس هم في الحقيقة أفقر الناس بسبب جور الملك." كما في جبل بني ورياكل.[107]

103 وصف إفريقيا، م. س.، 1: 99.
104 م. ن.، 1: 223.
105 م. ن.، 1: 248.
106 م. ن.، 1: 258، 259، 263...
107 م. ن.، 1: 263.

والـــرّاجح أن هذه الظاهرة كان يعاني منها بعض سكان المدن أيضا، فقد يكون عدد مهم من بين أولئك الذين ذكر الوزّان أنهم كانوا يودَعون المعتقل بفاس، لتراكم الدّيون عليهم أو لارتكابهم جنحا خفيفة[108]، من ضحايا هذه السياسة.

وترتّـــب عـــن تفشي الفقر والإفلاس، سواء بسبب الإجحاف في الضرائب أم لاجتماع العلّتيْن معا، انتشار اللصوصية والسلب، كما في جبل بني خالد[109]، أو في جـــبل بـــني يَدَّر[110]... وغني عن القول إن هذه الظواهر تنعكس سلبا على الميدان الاقتصادي والمبادلات.

وكـــان رجـــال المخـــزن كثيرا ما يتصيّدون الفرص لفرض مغارم على القبائل والحصول على مداخيل جديدة، كاستغلال الحروب القبلية لفرض غرامات على كل أطـــرافها، "بحيـــث تكـــون هـــذه الحروب دخلا للملك."[111] وقد ورد أن القائد العســـكري، الـــذي أرسله السلطان إلى تفزة لفضّ نزاع بين فريقين متخاصمين من سكانها، استخلص بالحيلة والدّهاء من اثنين وأربعين رجل فقط ما يزيد عن 126.000 مـــثقال من النقود والحلي وتَعهُّد بدفع خراج سنوي قدره 20.000 مثقال. وقد حضر الـــوزّان هـــذه الحادثة وربح من ورائها هو أيضا دريهمات بما دبّر من حيل وخدع، وعلّق عليها بالقول: "... ورأيت فيها لأول مرّة مثل ذلك المبلغ من الذهب. وأعلم أن ملـــك فاس لم يرَ قطّ مثل هذا المبلغ، لأن هذا الملك المسكين، الذي يجبي إليه كل عام نحـــو ثلاثمائة ألف مثقال لم تتوفّر لديه قطّ في الخزينة مائة ألف ولا كانت أيضا لأبيه.

---

108 م. ن.، 1: 196.

109 "سكانه خاضعون لأمير بادس، وهم لصوص سفّاكون بسبب فقرهم والضّرائب التي تثقل كواهلهم." م. ن.، 1: 257.

110 "كانوا بسبب فقرهم يقتلون الغرباء ويسلبونهم." م. ن.، 1: 261.

111 كما كان يفعل، مثلا، في الحروب التي تنشب بين بني وزروال وجيرانهم. م. ن.، 1: 262.

وتـــرون مـــن خـــلال هـــذه الحكايـــة أية خدعة وأية مناورة يلجؤون إليها لابتزاز الأموال."[112]

وعـــلى العكس من ذلك أوضح الوزّان أن المناطق التي لم تكن تدفع ضرائب، لســـبب أو لآخر، كان أهلها أغنياء، لاسيما المناطق التي تتوفر على موارد وإمكانات مهمة، مثل جبال مسطاسة وبني مراسن[113] والبرانس[114]...

– الفوضـــى السياســـة والاستعمـــار الإيبـــري لمعظم الثغور الساحلية

إن من بين أهم ما يستخلص من المعلومات المتعلّقة بالمغرب الأقصى في "وصف إفريقيا" هو أن المغرب عرف أزمات متعدّدة وطويلة تعود للفوضى السياسية والأمنية الـــتي عرفتها البلاد، لاسيما منذ أواخر حكم بني مرين، وقد زاد من تعميقها احتلال الإيبريين للعديد من الثغور أو مهاجمتها، وعجز بني وطّاس عن معالجة هذه الأوضاع ممـــا أدى إلى مزيد من ضعف سلطة المخزن في العديد من الجهات وفي المناطق النائية والمنعزلة خاصّة.

وقد حاول السكان في عدّة مناطق ملء هذا الفراغ بما يكفل لهم تسيير شؤونهم المحلـــية وتنظـــيمها، فظهرت عدّة أنظمة سياسية واجتماعية محلية تتراوح بين حكم فـــردي[115] أو جماعي لأشهر محدودة[116]، وخضعت بعض التّجمّعات لحكم مجلس

---

112 م. ن.، 1: 144. وعن الرواية كاملة راجع م. ن.، ابتداء من ص. 140. ومعلوم أن الوزّان ذكر في مكان آخر أن الدخل الصغير للسلطان والذي لا يكاد يبلغ ثلاثمائة ألف لا يصل منه إلى يده حتى خمسه، لأن الباقي يُنفق في عدة أوجه حدّد بعضا منها، وفضلا عن ذلك فإن نصف هذا الدخل يتكون مواد غذائية. م. ن.، 1: 223.

113 كان سكان جبل مسطاسة أثرياء، لأنهم "لا يؤدّون للملك أية ضريبة وإنما يقدمون له بعض الهدايا البسيطة." وكان سكان جبل بني مراسن "لا يؤدون أية ضريبة للملك فاس، لأن جبلهم منيع ولكونهم أغنياء يدافعون عن أنفسهم." م. ن.، 1: 286. والأمثلة كثيرة، فراجعها هنا وهناك في الجزءين معا.

114 م. ن.، 1: 278.

115 منه ما كان حكما مستبدّا في يد زعماء روحيين مثل عمر السّياف في قُلعة المريدين. (م. ن.، 1: 85) ومنه ما كان يستند إلى انتخاب زعيم للوقوف في وجه المخزن، كما في الجمعة الجديدة. م. ن.، 1: 99.

116 يضطلع فيه المترشحون إلى السلطة –من بين الأعيان خاصّة– بمهامهم إما بالقرعة أو بالانتخاب لمدد محدودة تتراوح بين ثلاثة وستة أشهر، فمثلا كان يحكم تيدسي سوس بالقرعة ستة أشخاص كل ستة أشهر. (م. ن.، 1:

بلـــدي[117]، وســـلّم العامّـــة في بعـــض الجهـــات أنفســـهم لحكم ذوي النسب الشـــريف[118]... غير أن هناك العديد من المناطق إنما كان فيها الحكم للأقوى[119]. وكانـــت النزاعات على موارد اقتصادية، أحيانا، من بين أهم العوامل التي تحول دون التوصّـــل إلى توافق اجتماعي وسياسي بين الفرقاء في بعض الجهات.[120] وفي أماكن أخـــرى عمـــل البعض من أجل أن يُعترف به حاكما لكنه لم يجد رعيّة يحكمها، لأن السكان هاجروها بسبب الفوضى وانعدام الأمن.[121]

وجديـــر بالملاحظة أن المهام الملقاة على عاتق هذه الكيانات والأنظمة السياسية المحلـــية والـــزعماء القبليين كانت تتعدّى إدارة الشأن المحلي إلى حماية المجالات الحيوية للأنظمـــة والقـــبائل سواء تُجاه المخزن أم القبائل القوية أم المنافسة أم تجاه الإيبريين، وذلـــك إمـــا بمهادنة هذه القوى والخضوع لها وإرضائها بدفع ضرائب أو غيرها وإن كانـــت مجحفة، هذا إذا كانت تلك الأنظمة غير قادرة على المواجهة، وإما بتحدّيها لـــلحفاظ على الاستقلال عنها، إذا توفّرت لها ظروف ملائمة كالقوّة العددية ومناعة الموطن[122]، أو اعتماد أسلوب المواجهة المُسلّحة المباشرة ضد أي عدوان أو تسلُّط،

---

95) وكان يتداول على حكم تارودَنْت أربعة من الأعيان كل ستة أشهر (م. ن.، 1: 93.) وكان يحكم تيوت سوس ثلاثة من الأعيان لمدّة ثلاثة أشهر. م. ن.، 1: 92...

117 كما في الجمعة بمسكورة. م. ن.، 1: 133.

118 كما في مداشر وقرى جبل دمنسرة. م. ن.، 1: 88.

119 كما في المدينة، حاضرة مسكورة، التي كان سكانها يفترقون إلى فرق عديدة تختصم باستمرار ويعادون في الخارج أهل مدينة أخرى. (م. ن.، 1: 129-130.) أو كما في تكاووست بسوس، التي كان سكانها منقسمين إلى ثلاث فرق متناحرة، ويستعين كل فريق على غيره بالأعراب الذين ينا صرون من يدفع إليهم أكثر. م. ن.، 1: 96.

120 كما كان الشأن في جبل إيلالن الذي كان أهله يتحاربون باستمرار من أجل منجم فضّة بجبلهم ويستغلّه المنتصرون منهم. م. ن.، 1: 96.

121 كما حدث في مدينة أغمات، التي لم يعد يسكن حصنها إلا ناسك مع جماعة من مريديه، الذين عملوا على أن يُعترف بهم كحاكمين لكنهم لم يجدوا رعية ليحكموها. م. ن.، 1: 108.

122 مثلا حاول المخزن الوطاسي إخضاع جبل سكيم، لكن أهله هزموه لمناعة جبلهم. "حقّا إن أهل هذه البلاد لم يجرؤوا على الذهاب إلى تادلا منذ هذا الحادث، لكنهم ليست لهم كبير حاجة بها، لأن جبلهم ينتج كمية كبيرة من

مهما يكن مصدره، مما كان يجعل تلك الأنظمة أو الزّعماء القبليين في استنفار مستمر وحريصين دائما على جمع الجبايات لصرفها في الحروب.[123]

ولا شك في أن هذه الوسائل مجتمعة كانت تحدّ من تحرّك السكان[124] بشكل يؤثر في أهمية التبادل بين المناطق، كما أنها كانت تستنزف الثروات وتحول دون تراكمها أو استثمارها في ما يفيد المجتمع اقتصاديا واجتماعيا.

وقد نتج عن الفوضى السياسية والأمنية تراجع الاستقرار في السهول وتراجع الزراعة فيها وطغيان أنماط من الترحال والنشاط الرعوي. واستبدّ "الأعراب" بهذه السهول، واكتفوا، في الغالب، بزراعة مساحات محدودة منها بقدر ما ينتج كفاية قوتهم ليس غير، وتعمّدوا ترك سائرها بورا[125]، وناهضوا كل عودة للزراعة الواسعة إليها على حساب المراعي[126]، بل إنهم كانوا يضايقون حتى سكان المرتفعات عندما يزرعون منحدرات جبالهم، كما كانوا يفعلون مع سكان تينيزّا، الذين كانوا يمنعونهم من حرث سهولهم ويفرضون عليهم ثلث محصولهم من زراعة منحدر الجبل.[127]

والواقع أن ضغط الأعراب على التجمعات السكانية الأقل قوّة كان قويا حتى إنه بلغ، في بعض الجهات، درجة الاستعباد، الذي ربط الوزّان بينه وبين الفقر في عدّة

الشعير، والماشية كثيرة جدا، وعيون الماء أكثر من الدّور عددا، فلا ينقصهم سوى مواد التجارة العادية." م. ن.، 1: 147. وهناك أمثلة أخرى كثيرة. انظر هنا وهناك.

123 كما كان الشأن بالنسبة لحاكم جبل واوزكيت، الذي كان يأخذ جبايات الجبل ليصرفها في الحروب بين قومه وأهل جبل تازيتة. م. ن.، 1: 134.

124 مثلا لم يكن بوسع أهل ودّان مغادرة قريتهم بسبب عداوة جيرانهم، بالرغم من فقرهم وقلّة مواردهم. م. ن.، 2: 116. وهنا وهناك...

125 كما كان يفعل الأعراب في سهول الجمعة الجديدة بأحواز مراكش. م. ن.، 1: 97.

126 مثلا حال الأعراب في سهل تامسنا دون إعادة إعمار العديد من المدن والقرى التي هجرت بسبب الغزو البرتغالي أو غيره، كما في المنصورة. (م. ن.، 1: 157) وأيضا كان الأعراب يمنعون أهل تينيزا الجبلية من حرث السهول الواسعة والخصبة الواقعة تحت مدينتهم. م. ن.، 1: 98، وهنا وهناك...

127 المكان نفسه.

مناسبات، لاسيما في الجنوب حيث شح الموارد[128]، وذلك على عكس الربط بين الحرية والغنى. فقد سجل، مثلا، أن أهل قصور ومداشر الخلط منهم "من يخضعون للأعراب أو لمدينة غارسلوان، ومنهم أحرار. فالأولون فقراء إلى حد أنهم أصبحوا يتسولون، والآخرون أغنياء لأنهم يسيطرون على الطريق المؤدّية من فاس إلى سجلماسة."[129] وهكذا يتضح أن "الأعراب" كانوا يقومون بدور مماثل للذي كان يقوم به المخزن بفرضه المغارم على القبائل إلى حد إفقارها.

وقد ساهم الغزو الإيبري بدوره في نزوح القبائل من السهول الأطلنتية بتواطؤ مع زعماء بعض القبائل الخاضعة لحكام الثغور المحتلة، بسبب العسف وكثرة المغارم وعدم حسم الموقف عسكريا بصفة نهائية سواء من قبل المخزن والقوى المغربية الأخرى أم من قبل الإيبريين. وقد أدّت الحملات البرتغالية ضد القبائل، هي الأخرى، إلى تراجع المساحات الزراعية، وهو ما كان يتنافى أصلا مع أهداف الوجود الإيبري في المغرب، ليس فقط بسبب هجرة القبائل لمواطنها وإخلاء العديد من المدن والقرى[130]، بل وأيضا لأن التجمعات السكانية القليلة التي صمدت في وجه المد الاستعماري بهذه السهول لم يكن بإمكانها أن تستغلّ كل أراضيها، كما كان الحال بالنسبة لسكان القصر الكبير بأزغار، الذين لم يكونوا قادرين على زراعة سوى منطقة تقارب مساحتها ستة أميال بسبب إزعاج البرتغاليين المحتلين لأصيلا.[131]

وللاستدلال بوضوح أكثر على الدور الذي لعبه الاحتلال الإيبري لمعظم الثغور المغربية وانعكاساته السلبية على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية يكفي أن نقارن بين شهادات الوزّان الذي عاين النتائج الخطيرة لهذا الاحتلال وبين شهادة كَرْبَخال

---

128 مثلا، قال الوزان عن تَيْلِيلْت: "ورغم أن القوم يتجرون مع بلاد السودان فإنهم فقراء خاضعين للأعراب." م. ن.، 2: 129. وهنا وهناك.

129 م. ن.، 2: 122.

130 راجع مثلا ما قاله الوزّان عن أقاليم دكالة (م. ن.، 1: 116 وما بعدها.) وتامسنا (م. ن.، 1: 153 وما بعدها.) والريف، م. ن.، 1: 252 وما بعدها...

131 م. ن.، 1: 236. وهنا وهناك...

مـــارمول[132]، الـــذي عاين الأوضاع في ظل الاحتلال ثم ما طرأ عليها من تغيرات إيجابية بعد الجلاء. لقد تحدّث الأول عن آثار الدّمار والتخريب ومختلف مظاهر التّشرّد والفقـــر والحـــيرة المسيطرة على القبائل، بينما تحدّث الثاني عن تلك المظاهر كحدث ولّى، بدءً بحديثه عن إقليمي سوس وحاحا في الجنوب الغربي إلى تَيحْريت قرب هنين في الشـــمال الشرقي. فمدينة أديكيس بحاحا، مثلا، التي حضر الوزّان عملية تدميرها عـــلى يد البرتغاليين "وهرب جميع سكانها إلى الجبال"[133]، عادت إليها الحياة وعاد "سكانها أغنياء شرفاء لأنهم لم يعودوا مُضايَقين بغارات المسيحيين منذ أن غادر ملك البرتغال مدينة أسفي، يحرثون ويحصدون بكل اطمئنان، والدليل هو أنه لا وُجود لقلعة ولا لأي مـــبنى حصـــين في المدينـــة بكاملها."[134] أما أهل بولعوان بدكّالة، الذين اضطُرّوا "إلى الالتجاء إلى جبال تادلا تَخلُّصا من النهب وتَحرُّرا من سيطرة البرتغاليين، عادوا إلى مدينتهم بعد اضمحلال سلطة البرتغاليين وتَقَوّي الشرفاء [السعديين]، وهم اليوم يملكون كثيرا من القمح وقطعان الماشية كسائر أعراب هذه المناطق."[135] وأما في سهل أزغار بالشمال الغربي، فإن سكان القصر الكبير "منذ أن تَخلّى ملك البرتغال عن أصيلا [عام 1550م]، أصبحوا أغنياء وأكثر اطمئنانا من ذي قبل."[136] وقس على ذلك بالنسبة لمختلف المناطق الساحلية على الأقل...

كان هذا ما استقيناه من "وصف إفريقيا" من عوامل طبيعية وبشرية كانت تؤثّر بشـــكل سلبي في النشاط الاقتصادي والرواج التجاري، ويمكن أن يُضاف إليها أيضا عوامـــل أخـــرى مثل تلكّؤ أهل أفْزا كثيرا في إنجاز مصنوعاتهم من البرانس في الأجل

---

132 إفريقيا، 3 أجزاء. تعريب: محمد حجّي ومحمد زنيبر ومحمد الأخضر وأحمد التوفيق وأحمد بنجلّون، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1: 1984، 2 و3: 1989.

133 وصف إفريقيا، م. س.، 1: 1: 80.

134 مارمول، م. س.، 2: 16.

135 م. ن.، 2: 103.

136 م. ن.، 2: 191.

المطلوب، حتى إن التجار الذين كانوا يؤدّون ثمن السلع مسبقا على أن يتوصّلوا بها في غضون ثلاثة أشهر تعوّدوا أن ينتظروها طوال سنة[137]، ومنها أيضا المعاناة الشّديدة التي كان يجدها أحيانا أصحاب الأراضي في استخلاص محصول أراضيهم الزّراعية بسبب مماطلة الفلاحين أو المستأجرين عند الأداء[138]، ومنها كذلك البعد عن الطّرق الرئيسة ممّا كان يحدّ كثيرا من تواصل سكان التجمعات النائية مع غيرهم ولاسيما من التجار[139]...

وهكذا يتبيّن مما تقدّم مدى الفائدة الكبيرة التي يمكن أن تقدّمها بعض كتب الرحلات والجغرافية بالنسبة للباحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب بفضل المادة الغزيرة التي تتوفر في بعض من هذا الصنف من أنواع كتب الرحلات والجغرافيا.

---

137 وصف إفريقيا، م. س.، 1: 145. لم يفصح الوزّان عن أسباب هذا التماطل والتلكّؤ، ونرجّح أن يكون ذلك بسبب أن الطلب على المنتوج من التجار كان أكبر كثيرا من طاقة العمل المنزلي الذي كانت تقوم به النساء خاصة، لاسيما غزل الصوف، وذلك لأن هذا العمل يأتي بعد الأعمال المتعلقة بالبيت وبعد الأعمال المتعلقة بالإنتاج الفلاحي عامّة. وقد وقفت في قبيلة بني مزكلدة، قرب وزّان، على ظاهرة مثل هاته، حيث كانت المتكسّبات من الغزل كثيرا ما يتأخّرن في إنجاز الغزل للحائكين بسبب كثرة أعمالهن.

138 راجع علاقة والد الوزان بفلاحي جبل بني جنفن. م. ن.، 1: 264.

139 كما في الجمعة بمسكورة، فقد كان إذا جاء أجنبي إلى هذه المدينة النائية هبّ جميع السكان لرؤيته حتى الأطفال، لاسيما إذا كان مرتديا لباسا غير اللباس المعتاد عندهم. م. ن.، 1: 133.